

الفرنكوفونية: انفناج لغوي أم إسئعمار ثقافي بأبعاد سياسية وإقتصادية ؟

د. بوجمعة وعلي، أستاذ باحث في اللسانيات الاجتماعية، المغرب.

ملخص

تعتبر الفرنكوفونية شكلا جديدا لاستعمار فرنسي قديم، عانت منه الدول المغاربية والأفريقية بشكل خاص، وهو شكل لغوي وثقافي في ظاهره، لكنه سياسي واقتصادي في عمقه، يتوخى التحكم في السياسات اللغوية والثقافية للدول من خلال مجموعة من المؤسسات الفرنسية ذات الطابع اللغوي والثقافي والأكاديمي والفني، أو المدعومة من الطرف الدولة الفرنسية، كما يهدف إلى سيطرة اللغة الفرنسية على الفضاء التداولي العام والخاص، وتهميش اللغات الوطنية للدول وخاصة اللغة العربية من جهة ومواجهة، الهجمة اللغوية والثقافية الأنجلوساكسونية.

غير أن الفرنكوفونية أصبحت تعيش أزمة وجود واستمرار نتيجة عوامل متعددة أهمها: العولمة الجارفة وتحرير الفضاء الإعلامي الدولي وانفتاح الأجيال الجديدة على ثقافات أخرى كالثقافة الأنجلوساكسونية وهيمنة اللغة الإنجليزية على الاقتصاد والبحث العلمي والصناعة والتجارة والتواصل الدولي.

الكلمات المفتاحية: - الفرنكوفونية - أنزيم ريكلوس - التّعبية اللغوية والثقافية لفرنسا - التمكين للغة الفرنسية - بطرس بطرس غالي.

Abstract

The francophone is a new of the old french colonialisme. It has political and economic dimensions. It seeks control the linguistic and the cultural policies. of the countries through a group of french institutions. It also seeks the dominance of the french language over the public and the private deliberative space. Moreover, it aims to marginalize the national languages, especially the arabic language and to face anglo-saxon linguistic and cultural attack.

However ; the francophone faces many problems. It is threatened by globalization and explosion of English media communication systems, entertainment, and information.

Key words: -Francophonie -Riklos enzyme -Linguistic and cultural adaptation of France -Empowerment of the French language -Boutros Boutros-Ghali.

مقدمة:

الفرنكوفونية بمعناها المباشر والبسيط هي مجموعة من المؤسسات التي تعنى باللغة الفرنسية ومتكلميها، سواء كلغة أم أو كلغة ثانية، وذلك بهدف تعزيز دورها والحفاظ عليها والمساهمة في إبراز إيجابياتها على الأصعدة السياسية والثقافية والاقتصادية.⁽¹⁾ فهي تهتم بكل ما له علاقة باللغة الفرنسية في كل استخداماتها، وبكل من يتكلمها بصفة دائمة وطبيعية أو في بعض الظروف والمناسبات الاجتماعية كلغة أم أو كلغة أجنبية⁽²⁾، وهناك من يرى أن الفرنكوفونية حركة ذات بعد إيديولوجي، تهدف إلى تخليد لغة فرنسا، واسترجاع أمجادها في مستعمراتها القديمة⁽³⁾، في حين يراها البعض الآخر سياسة استعمارية تسعى فرنسا من خلالها إلى إعادة إدماج مستعمراتها القديمة اقتصاديا وثقافيا ولغويا.⁽⁴⁾

1 - الفرنكوفونية: تأطير تاريخي:

يعتبر أنيزيم ريكلوس/Onesime reclus أول من نحت مصطلح الفرنكوفونية سنة 1871م، إلا أن هذا المصطلح ظل مغمورا إلى حدود 1960م، حيث عملت فرنسا على إحياء النزعة الأدبية لدى بعض الحكام الأفارقة الموالين لها أمثال الرئيس السنغالي ليوبولد سانجور والتونسي الحبيب بورقيبة والنيجيرى حماني ديوري.⁽⁵⁾

ويعتبر الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة الأب الروحي، والمؤسس الحقيقي للفرنكوفونية، يقول في إحدى حواراته: «إن مستقبلنا مرتبط بمستقبل الغرب عموماً ومتضامن مع مستقبل فرنسا خاصة... ونحن نتجه اليوم من جديد إلى فرنسا. إنني أنا الذي تزعمت الحركة المنادية بالفرانكفونية؛ فالرابطة اللغوية التي تجمع بين مختلف الأقطار الإفريقية أمّتن من روابط المناخ أو الجغرافيا.»⁽⁶⁾

ويمكن استعراض أهم المحطات التاريخية المؤسسة للفرنكوفونية من خلال تواريخ وأنشطة ذات دلالة هامة:⁽⁷⁾

- 1966م: تأسيس الجمعية العالمية للكتاب باللغة الفرنسية.
- 1944م: دعوة الرئيس الفرنسي دو كول إلى بناء الاتحاد الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية لإعادة ربط فرنسا بمستعمراتها.
- 1946م: تأسيس الاتحاد الفرنسي الذي يتكون من فرنسا وسائر مستعمراتها.
- 1960م: انعقاد المؤتمر الأول لوزراء التربية والتعليم في فرنسا وإفريقيا، حيث تبلور مفهوم الفرنكوفونية نظرية ومنهجاً.
- 1961م: تأسيس اتحاد الجامعات الناطقة كلها أو جزئيا باللغة الفرنسية.

1962م: نشر مجلة «الفكر» الفرنسية لعدد خاص حول اللغة الفرنسية كلغة حياة، اعتبر بمثابة البيان الأول للفرنكوفونية.

1966م: تشكيل اللجنة العليا للدفاع عن اللغة الفرنسية بقرار جمهوري (تتكون من 20 شخصية أدبية وسياسة وفنية وعلمية وإعلامية).

1969م: تأسيس فيدرالية المعلمين الناطقين بالفرنسية.

1970م: تأسيس وكالة التعاون الثقافي والفني، حيث تم اعتبار تاريخ تأسيسها 20 مارس كيوم عالمي للفرنكوفونية.

1974م: تأسيس الجمعية الفرنكوفونية للاستقبال والاتصال.

1986م: انعقاد المؤتمر الأول للفرنكوفونية في باريس.

1997م: إحداث منصب الأمين العام للفرنكوفونية وانتخاب بطرس بطرس غالي.

1998م: انعقاد المناظرة الوزارية للفرنكوفونية في بوخارست، وإقرار مصطلح المنظمة الدولية للفرنكوفونية.

2001م: انعقاد مؤتمر القمة التاسع للفرنكوفونية في بيروت.

2002م: مشاركة الأمين العام للفرنكوفونية بطرس بطرس غالي في مؤتمر القمة العربية في بيروت، وتقديم تقرير حول دور الفرنكوفونية في الإشراف على الانتخابات الرئاسية في الدول العربية والإفريقية.

كما شاركت الفرنكوفونية في العديد من المؤتمرات الإقليمية والدولية من أهمها:⁽⁸⁾

- المؤتمر الدولي حول السكان بالقاهرة سنة 1995م.
- القمة الدولية من أجل التنمية 1995م.
- المؤتمر الدولي الرابع حول المرأة والتنمية في بكين 1995م.
- مؤتمر الأمم المتحدة حول الإنسان والسكن سنة 1996م.

2 - أشكال ومظاهر الفرنكوفونية:

تعتمد الفرنكوفونية في اشتغالها على جبهتين:⁽⁹⁾

* **جبهة رسمية:** وتعتمد على ربط الدول التي تدور في فلك الفرنكوفونية بأطر سياسية تشرف عليها الدولة الفرنسية، وتتيح لها توجيه السياسات العليا لهذه الدول سواء على الصعيد الداخلي أو الإقليمي أو الدولي، على النحو الذي يخدم نفوذ ومصالح فرنسا السياسية، والثقافية والاقتصادية، ويعزز مركزها على الساحة الدولية.

* **جبهة شعبية:** وتعتمد على تنظيم بعض المؤسسات لأنشطة ثقافية وفنية ذات طابع فرنكفوني، وتشجيع الإنتاج الثقافي والفني المنتجين باللغة الفرنسية وإحاطته بالحوافز

المادية والإعلامية.

ومن بين هذه المؤسسات التي تشتغل من خلالها الفرنكوفونية:

أ- البعثات الفرنسية: وتعمل من خلالها على صياغة نخبة محلية بروح وثقافة وقيم فرنسية، وتؤهلها لتسيير القطاعات الاستراتيجية في بلدانها، ليسهل التحكم فيها وتوجيه سياساتها.

ب- المراكز الثقافية الفرنسية: وتعمل على تأييد الارتهان الثقافي واللغوي لفرنسا، من خلال القيام بأنشطة ثقافية وفنية في المؤسسات الجامعية والثقافية والتربوية، من خلال إثارة ومقاربة مواضيع حساسة مثل: حرية المرأة، الجنس، التنوع الثقافي، التعدد اللغوي، حقوق الإنسان، مقارنة النوع، المساواة....

ج- مؤسسات التعاون الثقافي والأكاديمي والعلمي: وخصوصا في الجامعات باعتبارها فضاءات لإنتاج الأفكار وتحصيل المعرفة والعلوم، وتحظى بعض الشعب الدراسية باهتمام خاص من لدن الفرنكوفونية كشعبة اللغة الفرنسية التي تهتم بدراسة الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية، الأدب الشفهي، دراسة اللهجات، التعدد اللغوي، التنوع الثقافي.⁽¹⁰⁾

وتعمل الفرنكوفونية من خلال مؤسساتها الرسمية والأهلية على أداء أربعة وظائف أساسية:⁽¹¹⁾

- 1 - تكريس التبعية الثقافية واللغوية: من خلال دفع الدول المعنية إلى التمكين للغة الفرنسية في السياسات اللغوية والأنظمة التعليمية وفي القطاعات الحيوية الإدارية والاقتصادية والإعلامية والثقافية.....
- 2 - تأييد الارتباط السياسي والاقتصادي بفرنسا.
- 3 - تشكيل قطب عالمي فرنكفوني، يوازي وينافس القطب الأنجلوفوني.
- 4 - تقوية مركز فرنسا في الساحة الإقليمية والدولية: وفي منظماتها الكبرى السياسية والاقتصادية والعسكرية مثل: مجلس الأمن الدولي، هيئة الأمم المتحدة، الاتحاد الأوروبي، منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، قمة الثماني الأكثر تصنيعا في العالم، حلف النيتو، الاشتراكية الأممية....

وقد استطاعت الفرنكوفونية أن تحتل المراكز والقطاعات الحيوية في كثير من البلدان العربية والإفريقية، حيث أصبحت اللغة الفرنسية لغة الإدارة والاقتصاد والبحث العلمي والإعلام والديبلوماسية، مما يؤكد أن فرنسا نجحت في تحويل

الفرنكوفونية إلى رأسمال مادي حقيقي للاستثمار في مجال تنمية مصالحها السياسية والاقتصادية والثقافية واللغوية، وتجديد سيطرتها على مستعمراتها القديمة وخاصة في القارة الإفريقية والوطن العربي.⁽¹²⁾

3 - الفرنكوفونية استعمار ثقافي ولغوي لأهداف سياسية واقتصادية:

خرجت فرنسا من باب السياسة باستقلال بلدان المشرق والمغرب العربي وإفريقيا، لكنها ستعود إليها من نافذة الثقافة واللغة، خلال حوامل داخلية هي النخب المحلية، التي ستسري وتيسر شروط العمل على إحكام الهيمنة الفرنسية على مختلف القطاعات والسياسات، بالتمكين للغة الفرنسية في الإدارة والنظام التعليمي ووسائل الإعلام بمختلف أنواعها.⁽¹³⁾

إن الفرنكوفونية سياسة فرنسية تسعى للحفاظ على التبعية السياسية والاقتصادية من خلال غطاء الثقافة واللغة، وقد بدا ذلك واضحاً في تحول الإشراف على السياسة الفرنكوفونية من وزارة الثقافة الفرنسية إلى وزارة الخارجية⁽¹⁴⁾، مما يؤكد البعد السياسي لهذه السياسة. كما أن هذه السياسة رغم خطابها المموه بالتعدد والاختلاف والتنوع، هي سياسة إقصائية، تمارس الوصاية على الثقافات واللغات الأخرى بغية إماتها، ويتجلى ذلك في فرض اللغة الفرنسية على بعض الدول والمجتمعات العربية والإفريقية بالقوة تارة وبالمال تارة أخرى، بغية القضاء على اللغات الوطنية ومسح الشخصية الثقافية والحضارية وتزوير الذاكرة الجماعية، وتغريب المجتمعات عن ثقافتها وحضارتها وهويتها.

4 - الفرنكوفونية استهداف للغة العربية:

عملت الفرنكوفونية بكل الوسائل المتاحة لديها على تنحية اللغة العربية، والقضاء على الثقافة العربية والحضارة الإسلامية في نفوس وواقع الشعوب، بهدف إلحاقها بالثقافة والحضارة الفرنسية⁽¹⁵⁾، وقد كان ذلك ضمن أولويات السياسة الاستعمارية لفرنسا في كل الدول العربية والإسلامية التي احتلتها، يقول المقيم العام الفرنسي بالمغرب الجنرال ليوطي: «ليس علينا أن نعلم العربية لمجموعات من الناس استغنوا عليها -يقصد الأمازيغ-، إن العربية عنصر أسلمة لكونها لغة القرآن.»⁽¹⁶⁾ لذلك عملت الفرنكوفونية بعد الاستقلال على إتمام ما بدأه الاستعمار من خلال التضييق على اللغة العربية ومتكلميها، وجعل المجتمع ينسلخ عن لغته كما انسلخت عنها إدارته ومؤسساته التربوية والاقتصادية والثقافية، عن طريق خلق فجوة بين المجتمع ولغته الوطنية، بعد أن أدرك منظروها أن هناك علاقة وطيدة بين اللغة العربية والإسلام،

ومن ثمة حاولوا خنقها وإقصاءها من الفضاء العام، بدعوى أنها لغة جامدة ومتخلفة وعاجزة عن مجازاة المدينيات الحديثة، ولا تستوعب العلوم والاكتشافات الحديثة، وكأنهم يجهلون أو يتجاهلون أن التاريخ الإنساني يشهد أن اللغة العربية عاشت⁽¹⁶⁾ قرنا وهي تستوعب مدينيات مختلفة وحضارات متعددة كحضارة الفراعنة والإغريق والرومان والفرس والهند.⁽¹⁷⁾

إن هدف الفرنكوفونية هو إماتة الإسلام من خلال إماتة اللغة العربية وإقصائها من الإدارات والمؤسسات والفضاء العام، وقد راقبت عملية التعريب ومستجداتها عن كثب ويحذر شديد، بل عملت على إعاقتها وإفشالها بكل الوسائل، لغرض فصل المجتمع عن تاريخه وانتمائه الروحي والثقافي والحضاري حتى يسهل استيلائه وإلحاقه بفرنسا ثقافيا ولغويا وقيميا، بعد أن تحطم أسس الممانعة والمقاومة الذاتية في عقيدته ولغته وثقافته⁽¹⁸⁾، وقد أظهرت دفاتر التحملات التي أعدتها وزارة الاتصال بالمغرب سنة 2012، في إطار ما سمي بإصلاح قطاع الإعلام، حجم العداء الذي تكنه الجهات الفرنكوفونية لكل ما هو عربي ووطني، حيث عملت الصحافة الفرنكوفونية بكل أنواعها على إشعال حرب ضروس على اللغة العربية، وكل من يدافع عنها ويتبناها، وبالمقابل عملت على تمجيد اللغة الفرنسية ومميزاتها الفكرية والثقافية والاقتصادية والعلمية، كما كشفت هذه القضية جوانب متعددة من الحرب اللغوية الخفية والمعلنة التي تدور رحاها في بلادنا، وعن نيات الفاعلين فيها، بل وتم فضح الأغاليط والأساطير والأوهام التي تنبني عليها، خصوصا وأنها تدار باسم التنوع الثقافي والتعدد اللغوي، وباسم الحداثة والانفتاح.⁽¹⁹⁾ وهذا يؤكد ازدواجية خطاب فرنسا التي تواجه الأنجلوفونية الأمريكية والعولمة بخطاب التعدد الثقافي واللغوي والخصوصيات المحلية، في حين تصر الفرنكوفونية على هيمنة اللغة الفرنسية على اللغات والثقافات الأخرى، وتعمل على مزاحمتها والتضييق عليها إلى حد الإقصاء والإماتة، بل إنها ترفض حتى الاعتراف باللغات الجهوية داخل فرنسا بدعوى عدم «بلقنة فرنسا»، وقد وصل الحد خارج تعليم اللغات الأجنبية، أن فرضت الدولة اللغة الفرنسية كلغة وحيدة في التدريس والمباريات والعروض والأطروحات⁽²⁰⁾، وفي هذا الإطار يقول أحد الكتاب الغربيين: «إن الحضارة الغربية لا تقبل غيرها من الحضارات، ولذا فهي تعمل جاهدة لتخريبها، إن الغرب عالم وحيد يدعو إلى الإنسان الوحيد والأمة الوحيدة والحضارة الوحيدة، وكل ما يتعلق بالكثرة أو الإنسانية بمعنى الجمع والكثرة يعتبر ممنوعا ومرفوضا»⁽²¹⁾

5 - الفرنكوفونية والصراع ضد الأنطوفونية:

تقدم الفرنكوفونية نفسها بديلا حضاريا، ومشروعا سياسيا وثقافيا ولغويا،

تسعى فرنسا إلى توظيفه كسلاح في وجه العملة الأنجلوفونية الجارفة، لتضمن بقاءها على الساحة الدولية، وتفتح من خلاله فضاءات لإنعاش اقتصادها وتعزيز موقعها في مواجهة النزعة الأنجلوأمريكية.⁽²²⁾ فالعالم بعد الحرب العالمية الثانية أخذ يتجه نحو النموذج الأنجلوأمريكي، الذي حل محل النموذج الفرنسي في مجال الدبلوماسية والاقتصاد والإعلام والبحث العلمي.... يقول الأديب والمفكر المغربي محمد بنيس عن تحول الفرنكوفونية إلى إيديولوجية في مواجهة انتشار الإنجليزية: «تعني هذه الإيديولوجية في السياق المغربي، فرض اللغة الفرنسية في الإدارة والثقافة والإعلام والاقتصاد والقطاع الخاص، بجميع الوسائل الممكنة، بهدف انتزاع المكان الحضاري والجغرافي من اللغة العربية، وتجنب احتمال انتشار الإنجليزية، فالبعد المباشر لهذه الإيديولوجية سياسي واقتصادي في آن واحد، إنها تهدف إلى ضمان المغرب -المغرب العربي عموماً- كمنطقة مضمونة سياسياً واقتصادياً لصالح الامتيازات الفرنسية، فمن ينطق الفرنسية يشتري ما هو فرنسي حسب شعار الرابطة الفرنسية.»⁽²³⁾

6 - الفرنكوفونية واللغة والثقافة الفرنسيين، أي علاقة؟

يرى محمد بنيس أن هناك تناقضاً بين الفرنسية كلغة وثقافة، والفرنكوفونية كإيديولوجية يقول: «الفرنكوفونية تمنع علي الفرنسية كثقافة، بدعمها للإنتاج الاستهلاكي الهزيل، فهي لا تهتم بانفتاحي على الثقافة الفرنسية الكونية، بل ما تفكر فيه هو سيادتها اللغوية، 24 ومن ثم فإن المغاربة مثلاً لم يكن لهم موقف سلبى من اللغة والثقافة الفرنسيين، كاختيار لساني أو ثقافي حر، بل كان عداؤهم وسبقى للفرنكوفونية كإكراه لغوي وثقافي رمزي ومادي خارجي، لكنه محمول على حوامل داخلية شديدة الارتباط بمصادر خارجية، إنهم يميزون بين الفرنسية كلغة وكوسيلة معرفية يتوسل بها في المجال العلمي والحضاري، والفرنكوفونية كإيديولوجيا تفرض عليهم منظومة قيم لا تمت بأية صلة إلى الإجماع الوطني الثقافي والحضاري والديني⁽²⁵⁾، يقول الدكتور عبد العلي الودغيري في كتابه الفرنكوفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، بأن الغرض من الفرنكوفونية «ليس هو نشر اللغة والثقافة الفرنسيين، ولكن هو الوصول عن طريقهما إلى التحكم في عقول ومصير مستعمرليهما، فالمسألة ليست مسألة تطل بواسطتها شعوب معينة على العالم الغربي وثقافته وحضارته، ولكنها مسألة سياسية مخططة بخبث ومهارة، وتستعمل طمعا لاصطياد الشعوب.»⁽²⁶⁾

إن التصور الفرنكفوني الضيق يضرب مصالح اللغة الفرنسية عند عدد كبير من المغاربة والعرب والأفارقة، لما يحمله من سياسات ومواقف عداوية اتجاه الشعوب ولغاتها وثقافتها وحضارتها، فالفرنكوفونية كما يقول الدكتور عبد الإلاه بلقزيز:

«ليسوا حداثيين رغم كون اللغة الفرنسية تحتضن أفكار الحداثة بامتياز -لغة ثقافة الأنوار-»⁽²⁷⁾

8 - الفرنكوفونية وصناعة السياسات اللغوية والثقافية للدول:

عملت فرنسا على التدخل المباشر والصريح في السياسات اللغوية والتعليمية والثقافية للدول الخاضعة لهيمنتها، وخصوصا الدول العربية والإفريقية، بل وحرصت على فرض هيمنة اللغة الفرنسية في المؤسسات التعليمية والثقافية والإدارية والاقتصادية والإعلامية، إذ وجدت في النخب الفرنكوفونية المتحكمة في زمام القرار خير معين على تطبيق السياسة الفرنسية، حيث تحقق لها في مجال التمكين للغة الفرنسية في عهد ما بعد الاستقلال السياسي، ما لم يتحقق لها في عهد الاستعمار المباشر، لذلك فإن هناك من يرى أن الاستقلال الوطني لكثير من المستعمرات الفرنسية، تحقق في جلاء المستعمر عن الأوطان عسكريا، أما الاستقلال الاقتصادي والثقافي واللغوي فلا تزال جبهاته مفتوحة ومعاركها طويلة وضارية، وقد تمتد لعقود طويلة⁽²⁸⁾، لأن معظم السياسات والحروب كانت انعكاسات لغوية وثقافية، برهنت على خطورة الدور الذي تلعبه اللغة في حياة الأمم والشعوب.

لقد مارست فرنسا من مواقع متعددة، ضغوطات قوية على المغرب المستقل لإقرار وتثبيت الوجود اللغوي الفرنسي بالمغرب، وإعطاء الواقع الذي فرضه المستعمر إبان الاحتلال العسكري، صفة الشرعية والاستمرارية بعد الاستقلال في مختلف الميادين وخاصة ميدان التربية والتعليم وتكوين الأطر، حيث استطاعت اختراقها وفرض سياسة لغوية وتعليمية وثقافية تفرنس الأجيال الناشئة وتفرغها من قيمها الثقافية والحضارية والدينية في أفق إدماجها في الإطار الفرنكفوني العلماني، الذي سيعزلها بشكل تام عن تاريخ وحضارة وقيم الأمة المغربية⁽²⁹⁾، ولأن التربية والتعليم يضطلعان بدور كبير وحاسم في ترسيخ القيم والخصوصيات الثقافية والحضارية والدينية والأخلاقية، فإن الفرنكوفونية عملت بكل ما لديها من وسائل، على التحكم في بنية التربية والتعليم وتغييرهما، بهدف فصل الإنسان المغربي عن مقوماته الحضارية، حيث صاغت سياسة لغوية تقوم على تشجيع التمدن بالغة الفرنسية في مقابل إقصاء اللغة العربية من التدريس، بدعوى أنها ليست لغة العلوم والفنون، وإنما هي لغة الدين والعبادات، بل وصل الأمر بها إلى تشجيع استعمال العامية واللهجات العربية والأمازيغية في التدريس، بغية إضعاف كل الروابط التي تجمع اللغة والثقافة بالمجتمع، خصوصا وأن اللغة العربية لغة القرآن، وبالتالي فإن القضاء عليها بالتدريج هو قضاء على الثقافة والتراث الإسلامي، يقول المقيم العام الفرنسي بالمغرب ليوطي

في دوريته الشهيرة بتاريخ 16/06/1921: «إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، إن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن»⁽³⁰⁾، وهذا ما يؤكد موريس لوجلي أحد كبار منظري السياسة الاستعمارية بالمغرب في إحدى مقالاته حين قال: «علينا أن نلق في كل مكان عن الحديث باللغة العربية، وإعطاء الأوامر بالعربية إلى قوم هم مجبرون على فهمنا وإجابتنا»⁽³¹⁾

إن المغرب رغم حصوله على استقلاله السياسي منذ سنة 1956م، لم يستطع وضع قطيعة نهائية مع النظام الاستعماري الفرنسي وسياسته الثقافية واللغوية الإقصائية لكل ما هو وطني وعربي وإسلامي، بل ظل مكبلا بالشروط التي أملتها مفاوضات إكسليبان، فكان الطابع العام الذي طبع الوضع الجديد هو الاستقلال السياسي في إطار استمرار التبعية الثقافية واللغوية والاقتصادية ضمن ما يسمى بالفرنكوفونية، وهذا ما فرض معالجة مختلف القضايا بالتشاور والاتفاق مع فرنسا بما في ذلك القضايا السيادية.⁽³²⁾

إن ثقل التركة الاستعمارية الفرنسية على المغرب المستقل أثر بشكل كبير على مشاريع البناء والإصلاح على جميع الأصعدة، وقد بدا الأمر واضحا في المجال التربوي والتعليمي، الذي تعثرت كل مشاريع بنائه وإصلاحه، من خلال الاضطراب والتبرّد في الاختيارات اللذين طبعا معظم القرارات والسياسات التعليمية منذ الاستقلال، حيث طغى هاجس التوافق بين التيار الفرنكفوني النافذ والمتغلغل والمؤثر في كل مراكز القرار والمدعوم من فرنسا، والتيار الوطني المدعوم شعبيا لكنه يفتقد لأدوات الضغط الكافية للتأثير في القرارات، وفي صياغة المشاريع وتنفيذها، وخير مثال على ذلك قضية التعريب التي مازالت تبحر مكانها منذ الاستقلال، رغم أنه أحد المبادئ الأربعة الأساسية التي قام عليها إصلاح التعليم غداة الاستقلال، وهذا ينطبق أيضا على أكاديمية محمد السادس للغة العربية التي جاء بها الميثاق الوطني للتربية والتكوين، وخرج قانونها التنظيمي في الجريدة الرسمية منذ 2003م إلا أنها ما تزال حبرا على ورق.

إن قوة اللوبي الفرنكفوني في مراكز القرار الوطني أفشل مشروع التعريب، الذي كاد أن ينجح لو توفرت الإدارة السياسية وخف الضغط الفرنكفوني الذي أبدى خوفه وانزعاجه من نجاح التعريب، خصوصا بعد نجاحه في بعض الدول العربية كسوريا والعراق والأردن.

9 - الفرنكوفونية عائق أمام تحرر وتنمية الشعوب:

إن الهيمنة الفرنكوفونية منعت كثير من الشعوب العربية والإفريقية من

التعلم والتدريس بلغاتها الوطنية، والاستفادة من اللغات الأكثر تأثيراً وتفوقاً في العالم من حيث مواكبة العصر وتحولاته العلمية والمعرفية والتكنولوجية⁽³⁴⁾، بل إن الإصرار على التمكين للغة الفرنسية في كل المجالات، حرم هذه الشعوب من الاستفادة من التقنية الحديثة والمعلومة المتطورة التي تعد اللغة الإنجليزية حاملاً لغويًا لها⁽³⁵⁾. وهذا ما جعل الفرنكوفونية عائقاً فعلياً في طريق الاستقلال الثقافي واللغوي الذي سبيلًا لا محيد عنه لأي تنمية ثقافية ولغوية واقتصادية ذات روح وأطر وطنية، يقول المفكر المغربي وعالم المستقبلات الدكتور المهدي المنجرة: «إن التصور الجيوسياسي – الثقافي للفرنكوفونية، يروج لتنمية التخلف بإفريقيا ويشجع التسول بالصدقة الملفوفة داخل غطاء المساعدات»⁽³⁶⁾.

10 - الفرنكوفونية حرب على العويات والثقافات واللغات الوطنية:

يرى الدكتور فريد الأنصاري أن الاختراق الفرنكفوني واضح في المجالين الثقافي والتربوي التعليمي، من خلال السيطرة شبه المطلقة للغة الفرنسية على التعليم والثقافة رغم ما تعانيه هذه اللغة من تخلف مصطلحي مقارنة مع اللغة الإنجليزية، وتراجع مستوى تصنيفها العالمي ضمن اللغات الحية، كما أن الخطر النفسي والقيمي كبير على الطفل الذي تحشى ذاكرته في سن مبكرة بلغات - حاملة لفكر وقيم - غير لغته الوطنية، التي تحمل هويته الثقافية والحضارية والدينية⁽³⁷⁾، إن هذا الاختراق الكبير تم من خلال ثنائية لغة التدريس، التي خلقت طبقة من المثقفين والأدباء بدون هوية، تمجد الانحراف والإباحية من خلال الأدب، حيث أصبح الجسد لغة في حد ذاته، وموضوعاً لا يكاد يخلو منه أي إبداع شعري أو سردي، ومع ذلك فهي تلقى الدعم الوفير والتشجيع القوي، من خلال رصد الإمكانيات المادية والإعلامية، وهذه إحدى العوائق الأساسية التي تواجه حركة التحرر الوطني من الهيمنة اللغوية والثقافية والقيمية للحضارة الغربية عموماً والفرنسية خصوصاً⁽³⁸⁾.

11 - أسباب الضغط الفرنكفوني على الدول العربية الإسلامية:

صار الضغط الفرنكفوني على الدول العربية الإسلامية وخاصة دول شمال إفريقيا قوياً ومركزاً في العقود الأخيرة، وقد تجلّى ذلك في تزايد عدد المؤسسات الفرنكوفونية (أحزاب، جمعيات، معاهد، مدارس، جامعات، مراكز، إذاعات، قنوات تلفزيونية، مجلات، جرائد...) من جهة، وفي تزايد الحضور الثقافي والإعلامي من جهة ثانية، سعياً منها للحفاظ على مواقعها في الفضاء العام، والعقل واللسان والوجدان، وقد كان الضغط نتيجة عوامل متعددة أهمها:

أ- اختلال التوازن الثقافي واللغوي العالمي لصالح اللغة الإنجليزية، وعدم قدرة اللغة والثقافة الفرنسييتين على مواجهته أو الحد منه.

ب- الحصيلة المتواضعة - رغم غياب الظروف المساعدة- لسياسة التعريب على المستوى الإداري والتعليمي.

ج- بداية ما يسمى بالصحو الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، من خلال تنامي الوعي الإسلامي لدى الشعوب الإسلامية وخاصة الشباب منهم، والإحساس المتعاظم بضرورة العودة إلى الإسلام واللغة العربية باعتبارهما مقومان أساسيان من مقومات الهوية الثقافية والحضارية والدينية للأمة.

12 - انحسار الفرنكوفونية وتراجعها:

رغم ما حققته الفرنكوفونية من اختراق كبير للشعوب العربية والإفريقية والإسلامية على جميع المستويات، فإنها تعاني من تراجع كبير بسبب عوامل متعددة أهمها: (39)

أ- ظهور الحركات الإسلامية وانتشار الوعي الديني: أدى ظهور الحركات الإسلامية الدعوية والتربوية والأحزاب ذات المرجعية الإسلامية إلى نمو الوعي الديني وقابلية المقاومة والتصدي للتيارات التغريبية والاستعمارية التي تحاول النيل من الثقافة والحضارة والهوية الإسلامية.

ب- المد الهائل للغة الإنجليزية: وما أحدثه من تقليص لمساهمة وتأثير اللغة الفرنسية في العالم، إذ أصبحت الأجيال الجديدة تفضل اللغة الإنجليزية على اللغة الفرنسية، التي بدأت تتراجع حتى في معاقلها التاريخية، فالفرنسية لغة الجيل القديم، واللغة الإنجليزية استطاعت أن تجذب إليها اللسانين الفرنسيين للاستفادة من الكم الهائل من المصطلحات اللغوية التي تنتجها.

ج- العولمة الجارفة: وهي ظاهرة عالمية أنتجها النظام العالمي الجديد بقيادة أمريكا، وتهدف إلى محو الحدود بين البلدان، والثقافات، والقيم، واللغات، والحضارات لصالح نموذج لغوي وثقافي عالمي واحد هو الإنجليزية كلغة وثقافة كونية، لذلك أنتجت نظريات ومقولات عديدة أهمها: نهاية التراث، نهاية التاريخ، نهاية الجغرافيا....

كما أن العولمة جاءت بمؤسسات وقوانين عالمية أبرزها، صندوق النقد الدولي، البنك العالمي، هيئة الأمم المتحدة والمؤسسات التابعة لها، منظمة التجارة العالمية، مجلس الأمن الدولي.... وأمام هذا الوضع أصبحت الفرنكوفونية تتراجع أمام الهيمنة

المتواصلة والسريعة للإنجليزية على كل مناحي الحياة وفي مختلف مناطق العالم.

أما على المستوى الإعلامي، فقد تمثلت عوامل تراجع الفرنكوفونية في:⁽⁴⁰⁾

* ظهور القنوات العربية ذات الانتشار العالمي، مما أفقد الإعلام الرسمي الذي تسيطر عليه الحكومات هيمنته وتأثيره على الواقع، ومن بينها: الجزيرة، العربية، BBC، الحوار....

* تحرير الفضاء الإعلامي الوطني والدولي، وانعكاسات ذلك على اللغة الفرنسية وعلى السياسات الفرنسية وخاصة في مجال التعليم والثقافة والفن....

* انفتاح الجيل الجديد على لغات وثقافات دول أخرى غير اللغة والثقافة الفرنسيين التي كانتنا أشبه بالقدر المحتوم لكثير من الدول والشعوب، وخاصة اللغة الإنجليزية، والألمانية، والإيطالية والإسبانية والصينية، كلغات أصبح لها دور علمي وسياسي واقتصادي عالمي.

أما مظاهر تراجع الفرنكوفونية، -رغم تمركزها في دول المغرب العربي وإفريقيا-، فتتجلى في:⁽⁴¹⁾

• سيطرة أمريكا على معظم اقتصاديات العالم، وتحكم الدولار في البورصة العالمية، واحتلال اللغة الإنجليزية موقع الصدارة في مختلف مجالات البحث العلمي والتكنولوجيا والاقتصاد والتجارة، حث وصل عدد الوثائق الإنجليزية المتوفرة على شبكة الانترنت إلى مليار ونصف وثيقة، في حين لا تتعدى الوثائق الفرنسية نسبة 0.1 % من هذا العدد، بالإضافة إلى أن علماء وخبراء الأبحاث الفرنسية في المركز الوطني للأبحاث الاجتماعية، أصبحوا ينشرون أبحاثهم بالإنجليزية، التي أصبحت لغة 80 % من البحث العلمي العالمي.

• تراجع دور اللغة الفرنسية في العالم، حيث أصبح عدد المتكلمين بها في العالم لا يتجاوز 2,5 % من سكان العالم (المرتبة 9 عالميا)، أما على المستوى الاقتصادي، فلم تعد الفرنسية ذلك الجسر الأفضل للتواصل والتبادل بين رجال الأعمال في الأسواق العالمية.

إن الانحسار الكبير للفرنكوفونية كإيديولوجية وللفرنسية كلغة، أمام الزحف الهائل للعولمة ونموذجها الثقافي واللغوي المتمثل في اللغة الإنجليزية، وما أحدثه من عدم التوازن في المعادلة الثقافية واللغوية والاقتصادية الدولية لصالح أمريكا، لم يترك أي مبرر للدول العربية والإفريقية وخاصة دول شمال إفريقيا، للتشبث بالفرنكوفونية المتهاوية، ونموذجها اللغوي المتمثل في اللغة الفرنسية، لأن هناك فرصا سانحة لهذه

الدول للتخلص من هذه الهيمنة الاستعمارية الفرنسية الممتدة في الزمن وعلى جميع المستويات (اللغة، الثقافة، الاقتصاد، العلوم، التعليم...)، في أفق تحقيق الاستقلال، وتنويع العلاقات الخارجية سياسيا واقتصاديا وثقافيا ولغويا، بما يخدم المصالح الوطنية والقومية لكل بلد، بل إنه لم يعد هناك أي مسوغ للإبقاء على الثنائية اللغوية في التعليم والبحث العلمي، والمحافظة على اللغة الفرنسية كلغة وحيدة وأساسية في القطاعات الإدارية والثقافية والاقتصادية والتعليمية، خصوصا وأنها في تراجع كبير ومتسارع في مختلف المجالات، كما أن ترتيبها العالمي تقهقر إلى الرتبة التاسعة من حيث عدد المتكلمين بها.⁽⁴²⁾

خاتمة:

لقد آن الأوان لأصحاب القرار السياسي والثقافي والتربوي التعليمي في البلاد العربية وخاصة المغرب، أن يضعوا اللغة الفرنسية في الموقع الذي تستحقه، كلغة وأداة للانفتاح على العالم بالقدر الذي يناسبها، إلى جانب اللغات العالمية المؤثرة على الساحة الدولية علميا واقتصاديا وثقافيا، بل إن الأمر أصبح يستوجب ضرورة العودة إلى اللغات الوطنية، لتقوم بأدوارها التربوية والتعليمية والعلمية والحضارية، كلغات للتدريس والبحث العلمي في مختلف المستويات والتخصصات والمسالك، لأن التجارب الدولية والإقليمية أثبتت بالدليل القاطع أنه لا مجال للحديث عن التنمية والتطور والحداثة خارج اللغة الوطنية، وأنه ليس هناك تجربة تنموية واحدة نجحت لحد الآن باللغة الأجنبية.

العوامم:

- (1) يوسف، الشويري، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي- لغوي، (المقدمة)، مركز دار الوحدة العربية، الطبعة 1، مايو 2011، ص. 08.
- (2) زينب، عبد العزيز، الفرنكوفونية والمسألة الحضارية، دراسة: <http://www.bramjnet.com/vb3/printhred.ph.lt=1111947>
- (3) مجلة البيان، تقديم، مجموعة من المؤلفين، المنتدى الإسلامي، عدد 178، ص. 03.
- (4) محمد خروبات، الأبعاد الثقافية والإيديولوجية للفرنكوفونية بالمغرب، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/2.htm>
- (5) عبد الله، الشارف، أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب، منشورات نادي الكتاب بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، الطبعة 2، 2000، ص. 94.
- (6) إدريس، جنداري، الفرنكوفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي و لغوي: <https://groups.google.com/forum/#!msg/fayad61/gniqk2S9pgk/L6E09mPjkrUJ>

- (7) فريد الأنصاري، الفرنكوفونية في سطور:
<http://www.bramjnot.com/vb3/printhred.ph.lt=1111947>
- (8) نفس المرجع.
- (9) عبد الإله، بلقزيز، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي-لغوي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 1، مايو 2011، ص. 40.
- (10) محمد، الرحالي، اللغة والتنمية والسياسة اللغوية بالمغرب، بصمات 4، مرجع سابق، ص. 47.
- (11) عبد الإله، بلقزيز، الفرنكوفونية، إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي – لغوي- مرجع سابق، ص. 41.
- (12) المرجع نفسه، ص. 42.
- (13) م، ن، ص. 25.
- (14) محمد، الرحالي، اللغة والتنمية والسياسة اللغوية بالمغرب، مرجع سابق، ص. 46.
- 15- عمر، النمري، الفرنكوفونية استعمار أم استخراب ؟، مجلة البيان، عدد 178، سنة 1423هـ، ص. 40.
- (16) إدريس، الكتاني، ثمانون عاما من الحرب الفرنكوفونية على الإسلام واللغة العربية، منشورات نادي الفكر الإسلامي، الرباط، ط 1، 2000، ص. 198.
- (17) عبد الناصر، المقري، الفرنكوفونية ومحنة اللغة المغربية بالمغرب، مجلة البيان، دراسة:
<http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/4.htm>
- (18) عبد الناصر، المقري، الفرنكوفونية ومحنة اللغة المغربية بالمغرب، مجلة البيان، دراسة:
<http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/4.htm>
- (19) المهدي، المنجرة، الفرنكوفونية وأسباب رفضي لها، جريدة العلم، بتاريخ 22 أبريل 1993، ص. 21.
- (20) إدريس، الكتاني، ثمانون عاما في الحرب الفرنكوفونية ضد الإسلام واللغة العربية، منشورات نادي الفكر الإسلامي الرباط، ط 1، 2000، ص. 138.
- (21) R. Joulin, (1974), La décivilisation, politique et pratique de l'ethnocide, Bruxelles, Complexe, p. 65
- (22) عمر، النمري، الفرنكوفونية استعمار أم استخراب، مجلة البيان، عدد 178، الجزء 178، سنة 1423هـ
- (23) عبد الناصر، المقري، الفرنكوفونية ومحنة اللغة العربية بالمغرب، مجلة البيان، دراسة:
<http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/4.htm>
- (24) محمد، بنيس:
<http://www.islamweb.net/html/10ptu01/carel/4.htm>
- (25) محمد، بنيس، مرجع سابق.
- (26) عبد الإله، بلقزيز، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي- لغوي، مرجع

- سابق، ص. 29.
- (27) عبد العالي، الودغيري، الفرنكوفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، كتاب العلم، السلسلة الجديدة، الرباط، 1993، ص. 114.
- (28) أنطوان، سيف، الفرنكوفونية: إيديولوجيا السياسات، تحد ثقافي - لغوي، المناقشات، مرجع سابق، ص. 105.
- (29) عبد الإلاه، بلقزيز، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي - لغوي، المناقشات، مرجع سابق، ص. 116.
- (30) عبد الناصر، المقري، الفرنكوفونية ومحنة اللغة العربية بالمغرب، مجلة البيان، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/4.htm>
- (31) خالد، الصمدي، جوانب من الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/2.htm>
- (32) م، ن.
- (33) خالد، الصمدي، جوانب من الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/2.htm>
- (34) أدونيس، العكرة، الفرنكوفونية: إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي لغوي، المناقشات، مرجع سابق، ص. 94.
- (35) محمد، خروبات، الأبعاد الثقافية والإيديولوجية للفرنكوفونية بالمغرب، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/2.htm>
- (36) المهدي، المنجرة: www.elmandjra.org/elmandjra.htm
- (37) عبد الناصر، المقري، الفرنكوفونية ومحنة اللغة العربية بالمغرب، مجلة البيان، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/4.htm>
- (38) المرجع نفسه.
- (39) محمد، خروبات، الأبعاد الثقافية والإيديولوجية للفرنكوفونية بالمغرب، مجلة البيان، دراسة: <http://www.albayan.magazin.com/files/frankofoniah/2.htm>
- (40) مولاي التهامي، بهطاط، وما زالت النهضة العربية واقفة. <http://www.hespress.com/writres/95541/htm/print>
- (41) عمر، النمري، الفرنكوفونية استعمارية أم استخراب، مجلة البيان، عدد 178، سنة 1423هـ، ص. 40.
- (42) المرجع نفسه، ص. 40.

